أنطون باڤلوڤتش تشيخوف

حياته . تآليفه . اتجاهاته الأدبية

تاغنروغ . . . !

ومن منا لم يسمع بهذه المدينة إبان الحرب الألمانية السوفياتية ؟ أجل ! إن تاغنروغ هذه التى تقع فى أقصى شمال بحر آزوف ، هى مسقط رأس القصصى والكاتب المسرحى العالمى أنطون باڤلوڤتش تشيخوف.

ولد فى السابع عشر من شهر يناير سنة ١٨٦٠ ، وكان جده لأبيه رقيقاً للسادة تشرتكوف . أما أبوه فكان وكيلا لأملاك خاصة ، ثم تاجراً . وكانت أمه أوجينى ياكوڤليڤنا تنتمى إلى أسرة عريقة فى التجارة معروفة بأسرة موروزوف .

تلقى أنطون علومه الأولية فى المدرسة اليونانية الابتدائية فى تاغنروغ التابعة لكنيسة القيصر قسطنطين ، ثم تدرج منها إلى المدرسة الثانوية القائمة فى المدينة . وقد جاء فى مذكرات أخيه ميخائيل تشيخوف أن زملاء أنطون فى المدرسة كانوا يلقبونه بـ « أنتوشا تشيخونته » لأنه كان هادئ الطبع ، سكوتاً ، شاحب اللون ، قمرى الوجه ، منطوياً على نفسه ، قليل الاختلاط بالناس . . وكان أنتوشا التلميذ ، يحس فى قرارة نفسه أنه شىء تافه فى هذا الوجود ، فكتب لأخيه ميخائيل مرة رسالة ختمها بقوله : « واسلم لأخيك الضئيل ! . . » فرد عليه أخوه معنفاً إياه بقوله : « لا يعجبنى قولك : " أخوك الضئيل " . أتدرى أمام من يجب أن تقر بضآلتك ؟ يجب أن تقر بها أمام الله . . . أمام العقل ، والجمال ، والطبيعة ، وليس أمام الناس . . . فعليك ألا تقر أمامهم إلا بكرامتك . .

فأنت شاب شريف ، والشريف يحترم نفسه . وعليك ألا تمزج بين الطاعة والاعتراف بالضآلة » .

ويبدو أن هذه الكلمات قد تركت أثرها فى نفس أنتوشا ، ونبهته إلى ضرورة الخروج من العزلة ، والشعور بالكرامة الذاتية فكتب بعد مدة رسالة لأخيه قال فيها : « أتدرى يا أخى أن إدارة المدرسة تتقاضى عن كل طالب من الطلاب الداخليين مبلغ ثلثمائة وخمسين روبلاً سنوياً ، لكنها تقدم لهؤلاء المساكين غذاء لا تستسيغه معد الكلاب » .

وأخذ أنتوشا يصدر فى المدرسة مجلة للتلاميذ ، سماها : « الأرنب » ، وكان هو محررها الأول ، يغذيها بنكته ومداعباته ؛ وساهم فى إنشاء مسرح فى المدرسة أيضاً ، وكان يضع له المسرحيات المدرسية ويمثل فيها .

ولما أتمّ المدرسة الثانوية بتاغنروغ . وقد بلغ من العمر تسع عشرة سنة ، أحس بميل يدفعه إلى دراسة الطب ، لأن الطب فى نظره هو أسمى الأعمال الإنسانية ، فالتحق سنة ١٨٧٩ بكلية الطب التابعة لجامعة موسكو .

وبعد مضى أربع سنوات غدا أنتوشا يلقب بالدكتور أنطون تشيخوف وهذه الناحية الطبية فى حياته يجهلها معظم قرائه ؛ فالذى يعرفونه عنه أنه كاتب قصص ومسرحيات ليس إلا . .

حقاً إن الدكتور تشيخوف لم يمارس الطب كمهنة دائمة فى حياته ، ويعزو أخوه السبب فى ذلك إلى حادثين وقعا له فى بدء ممارسته فن التطبيب أولهما أنه وصف يوماً لأحد المرضى علاجاً أخطأ فى تحضير عقاقيره . . ولم يفطن للخطأ إلا فى الليل ، فهب من فراشه مسرعاً إلى بيت المريض الذى كان على وشك تناول الجرعة الأولى قبل النوم . . وربما كانت النومة الأخيرة . . . وثانيهما أنه كان يعالج أسرة مريضة بداء السل ،

ويعودها بين حين وآخر ، وحدث أن اشتد المرض على أحد أفرادها وأسلم الروح ويده بين راحتى الدكتور تشيخوف . . .

ومع ذلك اشتغل الدكتور أنطون تشيخوف فى دائرة الصحة فى موسكو ، وكان طبيباً لقرية لوپاسنا الواقعة بالقرب من العاصمة الروسية ، واشترك سنة ١٨٩٢ فى مكافحة عدوى الكوليرا ، وكان على الجملة محبًّا للطب ، مقرًّا بأن العلوم الطبية واختباراتها كان لها الأثر العميق فى نفسه ككاتب قصص ومسرحى .

والطريف فى حياة تشيخوف أن نزوعه إلى الأدب وميله إلى الطب لم يتعارضا قط ، بل كانا يكمل بعضهما بعضاً ، وعلى سبيل المثال نقول : إن أولى قصصه كتبها وهو يتلقى العلوم الطبية فى الجامعة وعنوانها : « رسالة إلى جار عالم » ويجدها القارئ مترجمة فى هذا الكتاب وهى قصة تهكمية نقدية ، يسخر فيها الكاتب من « غنىً أميّ » يطيب له أن يتحرش بالعلماء و « يناظرهم » . . وقد نشرت هذه القصة فى مجلة « الذبابة الفارسية » سنة ١٨٨٠ ، ثم صار فى تلك الأثناء يكتب فى عدة مجلات نذكر منها « موسكو » و « المنبه » و « الشظايا » و « النور والظلام » و « الصرصور » و « صحيفة بطرسبورغ » . وكانت كتاباته فى هذه المجلات أقاصيص هى أصغر من منقار الغراب ! وقد بلغت إحداها أحد عشر سطراً . . . وبالرغم من ذلك كان يقول له السيد ليتينسكى صاحب مجلة « المنبه » : أقاصيصك طويلة يا بنى . . اختصر . .

وكان تشيخوف ينحو فى قصصه هذه نحو الهزل والنكتة ، وتحمل كتاباته أسماء مستعارة مختلفة منها « أنتوشا تشيخونته » . وإذ كان يشعر دائماً بأنه بحاجة ماسة إلى شخصيات ومواضيع هزلية ، أعلن فى البيت ، وذلك بعد أن لحقت به أسرته من تاغنروغ ، أنه مستعد لشراء أية حكاية مضحكة بمبلغ عشرة كوبيكات ، أما إذا كان الموضوع يصلح لقصة

كاملة فيشتريه بعشرين كوبيكاً . ويظهر أن أسعاره هذه أغرت أحد إخوته * فكان يمده دائماً بالطرائف والملح ؛ ومن ثم أصبح « متعهده » الخاص .

ووضع تشيخوف فى تلك السن — أى وهو فى الرابعة والعشرين من عمره — ثلاث روايات هى « زهور متأخرة » و « الجديلة الذهبية » و « فوز لا لزوم له » لكنها لم ترق له فيما بعد ، ولم ينشرها فى مجموعاته ؛ واندثرت تماماً .

وفى سنة ١٨٨٥ وضع رسالة فى التوجيه الأخلاقى لما قيمتها لصدورها عن شاب فى الخامسة والعشرين ؛ وكانت هذه الرسالة دستور تشيخوف طيلة حياته ؛ وإلى القارئ ترجمتها الحرفية :

« إن المهذبين من الناس ليتحلون بالصفات التالية :

أولا — إنهم يحترمون الشخصية الإنسانية ، ولذا تراهم دائماً متواضعين ، مرنين ، متساهلين ، فإذا ما خالطوا أحداً من الناس فلا يقولون له "يتعذر العيش معكم" . . إنهم يغتفرون للصخب والبرد ، والحرارة ، والتطرف ، ولوجود الغرباء فى بيوتهم .

ثانياً — إنهم لا يتألمون للفقراء والحيوانات الضعيفة فحسب ، بل إن نفوسهم لتتألم أيضاً لأشياء لا تراها العين . . . وهم لا ينامون الليل لأنهم فى تفكير دائم فيمن يعجز عن دفع الأقساط المدرسية عن إخوته ؛ أو لا قدرة له على كسو أمه .

ثالثاً — إنهم لا يعبثون بملك غيرهم ؛ وهم دائماً يسددون ما عليهم من ديون .

رابعاً — إنهم أتقياء القلوب ، ويخشون الكذب كما يخشى المرء النار . فالكذب فى نظرهم مهين للسامع ومحط من قيمة المتكلم . . إنهم لا يتذبذبون فى حياتهم ، فسلوكهم فى الشارع لا يختلف قط عن سلوكهم فى البيت . ؟

* كان للكاتب أربعة إخوة وأخت .

وهم لا يحترمون إخوتهم الصغار ، كما أنهم غير ثرثارين ، فلا يتفوهون بما لا يسألون عنه وإذا ما تكلم غيرهم التزموا الصمت .

خامساً — إنهم لا يتمسكنون لاستثارة الشفقة عليهم ؛ وهم لا يضربون على أوتار قلوب غيرهم ليفوزوا بتأوهات من أجلهم . وهم لا يقولون : "لا يفهمونني" لأن هذه العبارة لا تدل إلا على ضآلة ووقاحة وتزييف .

سادساً — إنهم لا يحملون الهموم فى نفوسهم ، ولا تبهرهم الأحجار الكريمة الكاذبة ؛ كالسعى للتعرف إلى الأشخاص البارزين ، أو العمل على مصافحة أيدى السكيرين ! . . وهم يهزأون بمن يتباهى بقوله : "إننى ممثل الصحافة" ؛ ويكدون من أجل قوتهم فقط ، فلا يقتنون ياقة بمائة روبل ؛ ولا يهتزون إعجاباً إذا ما سمح لهم بارتياد أماكن محظورة على غيرهم ، فالنباهة الحقيقية فى نظرهم هى العمل فى الظلمة ، بعيداً عن الضجة والإعلان . . أولم يقل كريلوف : "إن البرميل الفارغ يحدث ضجيجاً أكثر من البرميل الملآن . . . ؟"

سابعاً — إنهم يقدرون ذكاءهم ، فيضحون من أجله بالراحة والخمر والنساء . وهم جد فخورين بعقولهم ، ويدركون أنهم مدعوون للتأثير على غيرهم بتعاليمهم . يضاف إلى ذلك أنهم صعاب المراس .

ثامناً — إنهم لا يتصنعون تهذيب نفوسهم ، لأن نفوسهم مهذبة بطبيعتها ، وهم لا يهجعون بلباسهم ، ولا يهملون شقوقاً فى الحائط مليئة بالحشرات ، ولا يستنشقون الهواء المسمم ، ولا يسيرون على أرض نثر عليها البصاق . . . ولا يتغذون فى أوعية قذرة ، وهم يسعون بقدر المستطاع إلى تقييد غريزتهم الجنسية والتسامى بها ، فهم لا يريدون من النساء فراشاً ؛ إنهم أشبه بالفنانين يريدون من النساء نضارة وجمالاً وإنسانية وكفاءة ليصبحن أمهات . . . وهم لا يقبلون على احتساء الفودكا ، ولا يتشممون الخزائن مثل الخنازير ، ومبدؤهم : "العقل السليم فى الجسم السليم" .

هؤلاء هم المهذبون . . !

فلكى تكون مهذباً ولا تهوى إلى أقل من المستوى الذى أنت فيه لا يكفيك أن تطالع كتاب "بكفيك" أو أن تردد حواراً من "فاوست"، بل عليك أن تعمل على صقل نفسك باستمرار، وأن تطالع دائماً ، وأن تدرس . وتشد عزيمتك . فكل ساعة تمر من حياتك لا تقدر بثمن » .

وفى هذه الآونة . أكب تشيخوف على وضع رواياته الصغيرة « بلا أبوة » و « ليس عبثاً صاحت الدجاجة » و « الرواية الكبيرة » . ثم أنجز مأساته المسرحية : « على الطريق العام » وقدحظرت الرقابة الروسية وقتئذ طبعها لتحدثها عن طائفة من الحجاج والقساوسة وأبناء السبيل . .

وفى سنة ١٨٨٦ نشر أنتوشا تشيخونته أول مجموعة من قصصه تحت عنوان: « قصص براقة » تتناول النكتة والمداعبة والنقد التهكمى اللاذع ، فجلبت له الشهرة فجأة . وفى سنة ١٨٨٧ أعقب تلك المجموعة بمجموعة أخرى ونشرها بعنوان: « الشفق » وموقعة باسمه الصريح الجدى « أنطون تشيخوف » . . فتلألأ نجمه على إثرها فى عالم الأدب الروسى ، ونال الجائزة الأدبية للأكاديمية الروسية المعروفة بجائزة بوشكين .

هذه هى المرحلة الأولى من حياة الكاتب الروسى الكبير ، وقد عرف فيها أنه كاتب « يعد كثيراً » ويبشر بخير أدبى وافر ، فهو يضع فيضاً من القصص الصغيرة لتنشر فى جميع المجلات . ولما سئل فيما بعد : « كم وضعت من القصص فى تلك الفترة ؟ » أجاب : « أظن أنها بلغت الألف » ! . . ثم شرع ينتقل من وضع الأقاصيص التى تنطوى على النكتة والملاحة ، وحدة الذهن ، إلى القصص الكبيرة ومحاولات فى الرواية . وكان القوم وقتئذ ينظرون إليه بوصفه شاباً فطناً ، إلا أن أحداً منهم لم يدر بخلده أن هذا الشاب الفطن سيدخل فى عداد الكتاب الكلاسيكيين الروس .

بعث تشيخوف يوماً برسالة للكاتب الروسى الشيخ « غريغوريفتش » قال له فيها : « كنت أكتب القصص كما يكتب مخبرو الصحف أنباء الحرائق : كنت أكتبها وأنا فى غمرة من الذهول ، وكأنى فى حالة لاشعورية غير مهتم بالقارئ أو بنفسى ، وغير ساع لأن أضع فى القصة أشكالا وأشخاصاً كانت عزيزة على ؛ والله وحده يعلم ما الذى كان يحدو بى لأن أحتفظ بها وأدخرها » .

وفى سنة ١٨٨٧ وضع تشيخوف مسرحيتين هزليتين من ذوات الفصل الواحد ، وهما « الدب » و « طلب زواج » — ويجد القارئ المسرحية الأولى مترجمة فى هذا الكتاب — وقد لاقتا لدى الجمهور الروسى نجاحاً كبيراً ؛ ثم أعقبهما سنة ١٨٨٨ بأولى مسرحياته الكبيرة « إيفانوف » فحالفها التوفيق وجلبت له الثناء والمال معاً .

وفى سنة ١٨٨٩ ، وضع روايته الكبيرة « القفر » ومسرحية هزلية مؤلفة من فصل واحد « مفجوع رغم أنفه » — يجدها القارئ مترجمة فى هذا الكتاب أيضاً — ثم أعقبهما بمسرحيته الكبيرة « جنى الغابة » ، طلبها منه مسرح « كيرش » فى بطرسبورغ ؛ ورجاه أن يسرع فى وضعها ؛ فكان تشيخوف يضع كل يوم فصلا فيحمله الرسول إلى مدينة بطرس ويعرضه على الرقيب قبل أن يجف حبره ، ثم يحيله إلى الممثلين ليستعدوا عليه .

والمعروف عن تشيخوف أنه كان يمقت « جنى الغابة » وقد أصرّ على عدم إعادة طبعها وتمثيلها ، ثم عدّلها بعد سنوات وأدمجها فى مسرحية « العم ڤانيا » .

وفى هذه المرحلة الثانية من حياته الأدبية يعترف به القوم بأنه « من أنبه الكتاب » ؛ فتقل كتابته ، ويبدو عليه التحفظ ، ويتحدث الناس عن كل شىء يكتبه : وتفتح له المجلات الكبرى صدورها ، لكنه يتهم « باللامبدئية » . .

وحدث فى تلك الأيام أن أثار جماعة من الأدباء الكلام عن تشيخوف فى حضرة الشيخ غريغوريفتش ، فقارنوه بكاتب أقل نبوغاً منه ، لكنه يفوقه فى « المبدأ » فتنمر الكاتب الشيخ وقال : « إن هذا الكاتب المبدئى ، لا يستحق أن يقبّل أثر البرغوث الذى يلسع تشيخوف ! »

ويندمج الكاتب فى هذه المرحلة بجميع الأوساط الأدبية والفنية فى العاصمتين الروسيتين ، ويظهر فى المجتمعات متواضعاً ، محباً للإصغاء والتأمل ؛ مقلاً من الكلام ، وتأخذ شهرته فى الانتشار والذيوع ، ويحس الكاتب فى هذه المرحلة أيضاً بميل إلى الرحلات فيتجه صوب القرم والقوقاس والفولغا ، ثم يعقد النية على السفر إلى آسيا الوسطى وإيران ، غير أنه يتلقى نبأ وفاة أخيه ميخائيل وهو فى باكو ، فيقفل راجعاً إلى موسكو .

ثم لم يلبث أن عمد إلى إعداد مشروع للسفر إلى جزيرة « سخالين » جزيرة المنفيين والمبعدين . ومما قاله فى تلك الجزيرة : « ربما لا يهم أمر سخالين تلك الفئة من الناس التى ليس لها فيها الآلاف من الإخوان والبنين ، ولا تنفق عليهم الروبلات بالملايين . . فسخالين هذه موطن آلام لا تطاق . . ولا يقوى على احتمالها الأحرار أو المستبعدون . حقاً إنه ليؤسفنى أننى غير عاطفى وإلا لنصحت الناس بأن يحجوا إلى سخالين جيلاً بعد جيل كما يحج المسلمون إلى مكة ، وأما البحارة والسجانون فعليهم أن يتطلعوا إلى سخالين كما يتطلع المحاربون إلى سواستوبول » .

وقام برحلته هذه سنة ١٨٩٠ ، وظل فى الجزيرة مدة ثلاثة أشهر لم يترك فيها مكاناً إلا زاره ، وبعد عودته وضع سفراً قيماً يقع فى أربعمائة صفحة ، وصف فيه الجزيرة وسكانها وصناعتها وزراعتها ودوائرها ومنافيها ، حتى إن وزارة المعارف الروسية حينذاك أذنت بتدريس « فصوله الجغرافية » فى مدارسها .

وما إن استقر تشيخوف فى موسكو ثانية . حتى بدأ يملّ ويتضجر ، ويقول لأصدقائه : « إيه أصدقائى . . ما هذا الملل المستولى علىّ . . إن كنت طبيباً فإننى بحاجة إلى مرضى ومستشفى ، وإن كنت أديباً فعلىّ أن أعيش فى وسط الناس ، لا فى زقاق مالايا ديمتروفكا . . إننى بحاجة ماسة إلى "قطعة" من الحياة السياسية والاجتماعية . . وأما هذه الحياة بين جدران أربعة ، حيث لا صحة ولا شهوة ، ولا أناس ولا وطن ! فهى ليست حياة وإنما هى الموت بعينه ! »

وسرعان ما أقبلت عليه « القطعة » المطلوبة من الحياة الاجتماعية والسياسية ، ملبية نداءه ، إذ حدث أن المجاعة ضربت أطنابها فى روسيا سنة ١٨٩١ ، فهب الكاتب يجمع للجياع اللباس والقوت . وفى سنة ١٨٩٢ رحل إلى مواطن المجاعة فى نيجيغورودسكى وأخذ يشرف بنفسه على عملية إغاثة الفلاحين المنكوبين .

وفى السنة نفسها عمد تشيخوف إلى إنشاء حياة جديدة له تكون حافلة بالنشاط والإنتاج ، فابتاع قطعة أرض مهجورة فى قرية ميليخوڤة ، بالقرب من موسكو ، وأخذ يفلحها ، ويعبد طرقها ، ويحفر فيها الآبار ، ويقيم عليها المستشفيات ويغرس فيها الأشجار ، ويعتنى بها كما يعتنى المرء بأطفاله .

وفى ميليخوڤة هذه وضع تشيخوف مسرحيته « النورس » — وهو طائر مائى فى حجم الحمام أو أكبر يعلو فى الجو ثم يزج نفسه فى الماء ، ولا يأكل غير السمك — ومثلت على مسرح ألكسندر يفسكى فى بطرسبورغ سنة ١٨٩٦ ، لكنها باءت بالفشل الذريع لأن الممثلين فى ذلك المسرح الحكومى اعتادوا التمثيل الفنى بلا حياة ، فلم يفقهوا تشيخوف فى روايته . . فكانت العبارات الشعرية فى روايته تثير ضحك الجمهور . . وكانت أقوالها الانتقادية تؤخذ على علاتها فيعلق عليها النظارة بالتنكيت والسخرية . .

ولما انتهى التمثيل أقبل المداهنون يهنئون الكاتب وهو واقف خلف الستائر فلم يقو على احتمال هذه الهزيمة ، وفر من المسرح ، وراح يسير على ضفة نهر نيڤا على غير هدى ، وكان الطقس رطباً بارداً ، فأثر ذلك فى رئتيه المريضتين ، وأسرع فى تقصير أجله .

إن حكم نظارة المسرح أسرع من القراء وأشد قسوة ، فالرواية يطالعها الناس وتنقضى مدة من الزمن حتى يفطن أحدهم لانتقادها ، وأما المسرح فترتفع فيه أصوات آلاف النظارة فوراً وتصدر فى المسرحية حكماً سريعاً لا رحمة فيه ، ثم تهب الصحف بعد ذلك وتدين تلك المسرحية مستندة إلى الحكم الذى أصدره جمهور النظارة فى المسرح .

وقد تلقى تشيخوف على أثر فشل « النورس » رسالة من لينسكى ، وهو أحد كبار ممثلى المسرح الإمبراطورى الصغير ، قال له فيها : « أنت تعرف مقدار حبى لك ؛ وتقديرى لذكائك ، ولذا أرى لزاماً على أن أكون صريحاً معك . . فهاك نصيحتى الخالصة : لا تكتب للمسرح ، فالمسرحيات ليست من اختصاصك » . . .

إلا أن فشل « النورس » و « نصيحة » ، لينسكى وغيره لم تحدّ من نشاط تشيخوف المسرحى ، فتابع وضع المسرحيات ، وأخرج إلى الوجود « العم ڤانيا » سنة ١٨٩٦ ، و« الأخوات الثلاث » سنة ١٩٠٠ ، و« حديقة الكرز » سنة ١٩٠٣ ، وقد تبنى مسرح موسكو الفنى جميع هذه المسرحيات بما فيها « النورس » ومثلها أفضل تمثيل يطابق روح تشيخوف وطراز تفكيره المستمد من وخزات الحياة ودقائقها .

ولما احتفل بانقضاء عشر سنوات على تأسيس مسرح موسكو الفنى وقف الممثل ستانيسلافسكى وقال عن « النورس » : « لقد جاءنا هذا النورس طائراً من بيت تشيخوف ، وجلب لنا معه السعادة وأنار لنا طريقاً جديدة فى حياتنا الفنية » .

وقال الكاتب المسرحى الروسى الأشهر نميروف دانشنكو فى خطابه الموجه إلى تشيخوف إبان عرض « حديقة الكرز » سنة ١٩٠٤ : « إن مسرح موسكو الفنى مدين لذكائك ولقلبك الرقيق ، ولنفسك الطاهرة فيحق لك أن تقول : إن هذا المسرح مسرحى » .

وقال تشيخوف فى إحدى رسائله عن المسرح المذكور : « إن المسرح الفنى هو أروع صحيفة فى ذلك الكتاب الذى سيوضع يوماً ما عن المسرح الروسى المعاصر » .

وهكذا توطدت الصلات بين المسرح الفنى وتشيخوف حتى غدا الاثنان متلازمين ملازمة الروح للجسد . ولما عرض المسرح المذكور « العم ڤانيا » للمرة الأولى فى موسكو كان الكاتب فى القرم يعالج مرض ذات الرئة فقرر الممثلون السفر إليه ليقوموا بتمثيل روايته أمامه . . . وتوجهوا فعلا إلى يالتا ، حيث كان يصطاف مكسم غوركى ، وعدد كبير من الكتاب وأسرهم ، ومثلوا « العم ڤانيا » بحضور أنطون تشيخوف وأقاموا فى حديقة بلدية يالتا حفلة تعارف كبرى بين الكتاب والفنانين .

فمسرحيات تشيخوف لم تنل فى بادئ الأمر النجاح من الجمهور لضعف فيها ، أو لعدم استعداد الجمهور لفهمها ، بل لأن الممثلين والمخرجين كانوا يتقيدون بقواعد بعيدة عن واقع الحياة ، فتعذر عليهم إخراج مسرحيات تشيخوف كما يريدها هو ، ولم يتخط هذه العقبة إلا مسرح موسكو الفنى الذى أتينا على ذكره .

قال أحدهم : لكى تكتب المسرحية يجب أن تكون ذكيًّا ، ولكى تخرجها يجب أن تكون نابغة ! . . .

وشخصيات تشيخوف فى مسرحياته خلو من كل صباغ ، هم أناس بسطاء ، يتحدثون عن أبسط الأمور بلغة بسيطة . . فليس فيهم ندّاب بكاء ، ولا من يتعلق بأهداب المثل العليا الخيالية ، وليس بينهم أبطال

يتباهون بجلائل الأعمال : بل على النقيض من هذا كله فالمؤلف يعرى شخصياته ، ويكشف عن نواحيها السيئة ، ويشير إلى نزعاتها الأنانية ، فيحس قارئ مسرحياته والناظر إليها أن قلبه يميل إلى الحنان والتعطف على أناس غير واضحين ، وأن أحلاماً غير واضحة تدغدغه وتنبهه إلى حياة أفضل ، وإن كانت غير واضحة ! . . .

وترافق هذه البساطة فى التعبير ، موسيقى خلابة ، وكوخ مهجور وليلة قمراء ، وهدوء « سارة » المكبوت وأحزان « إيڤانوف » ، وكمان العزاف الرقيق . . . وكل ذلك طبيعى لا تصنع فيه ولا تكلف ، لأن تشيخوف لم يتبع أى تمييز فى الألوان والألحان التى خلعها على شخصياته ، وقد حصر همه فى إخراج المسرحية بطبيعتها ، غير باحث عن أشكال جديدة ، وغير ساع لأن يكون مجدداً فى المسرح الروسى ؛ وكل ما كان يسعى إليه هو إيجاد أدوار جديدة للممثلين مصوراً شخصياته كما يراها فى الحياة متصلة بما يحيط بها من حقائق ووقائع . . فتتضمن مسرحياته الحديث عن الفجر الوردى ، والأمسيات الساحرة ، والمصابيح ، والمواقد ، وغلايات الشاى ، والبيانوات ، والآلات الموسيقية ، والتبغ ، والأخوات ، والخالات ، والعمات ، والجيران والأغانى . . وغير ذلك من مئات وآلاف الأشياء الصغيرة التى تبعث الدفء فى الحياة .

فتشيخوف نظر إلى الناس بعينيه لا بأعين تولستوى ، ودستويفسكى ، وتورغينيف . . فلا أبطال لديه وإنما أمزجة مختلفة من الناس .

قيل له يوماً : أقرأت « الجريمة والعقاب » لدستويفسكى ؟ فأجاب : أرجأت قراءتها حتى أبلغ الأربعين ! . . ولما بلغها سئل : أقرأتها ؟ . . فأجاب : أجل قرأتها ولكنها لم تترك فى نفسى أثراً كبيراً ! . .

فتشيخوف صاحب اتجاه خاص فى تآليفه ، فهو كما ألمعنا يصور أمزجة الناس ، وحالاتهم النفسية على مختلف أشكالها ، كما يصف

طباعهم وسلوكهم وعاداتهم ، ويتناول وخزات الحياة الدقيقة ، التى لا ينتبه لها المرء لكنها هى التى تولد بالتدريج حالات شتى من التعقدات النفسية والفكرية . . فالوخزة — أى أتفه متاعب الحياة — هى محور شخصيات تشيخوف ، وهى المقياس الذى يقيس به قيم الحياة الإنسانية .

وفى هذه المرحلة الثالثة من حياة الكاتب يُعترَف بأنه من كبار الكتاب المسرحيين ، ويبدو فى هذا الدور بأنه يعمل على تهذيب فنه العظيم ، ويفسح المجال لشخصياته لتفكر وتمحص : ويتناول بصورة خاصة أشكالا من حياة المتعلمين الروس ، التائهين فى عالم المتناقضات ، الغارقين فى الأحلام ، وانعدام الإرادة . . وفى غمرة هذه التأملات يعثر المرء على أفكار للمؤلف حكيمة ، فاضلة ، أعرب عنها برشاقة وفن عظيمين ، كما أن أغنية « عدم المبدئية » اندثرت تماماً ، وغدا اسمه يأتى بعد اسم تولستوى مباشرة .

* * *

إن كل من يطالع قصص تشيخوف ومسرحياته لا يسعه إلا أن يقر بعبقرية هذا الكاتب الفنان العالمى ، وإذا استقصينا السر فى هذه العبقرية لا نجده فى كفاياته الشخصية فحسب . بل فى فهمه العميق لروح القصة والمسرح أيضاً .

حدثنا الكاتب الروسى تيليشوف — وهو أحد معاصرى تشيخوف وأصدقائه — قال : تعرفت إلى تشيخوف فى سهرة شتوية ؛ ولما قربت تلك السهرة من نهايتها قال لى : لقد لاح الصباح ، والمدعوون يتفرقون إلى منازلهم ، وحان لنا أن نخرج أيضاً ، فهل رافقتنا لنشرب الشاى مع الزميل غيلياى وأخى ميخائيل باڤلوڤتش ؟ . . فقبلت الدعوة وخرجنا أربعتنا فى طلب الشاى ، وبعد بحث متواصل فى الحارات والأزقة وجدنا مقهى أضىء مصباحه ، فدخلناه وكان قذراً حقيراً . . فقال تشيخوف معلقاً : هذا ما نستحقه الآن ، وإذا وضعنا كتباً جيدة استحققنا أن

نتناول الشاى فى مقاه فاخرة ! . .

ولما كنا فى ملابس السهرة الرسمية اعتبرنا أصحاب المقهى من خدم الموائد الأرستقراطية الذين أنهوا عملهم فى حفلة عرس كبرى . . ! فاغتبط تشيخوف لذلك وقال : هذا شىء نفيس . إنكم لتشكون من قلة المواضيع للكتابة . . أوليس هذا بموضوع ؟ هنا مادة لقصة طويلة ! . .

وكان حائط المقهى قذراً ، وقد ظهرت عليه بقع سوداء ، تركتها رؤوس الحوذيين المخضبة بالزيوت ، فتطلع الكاتب إلى هذه البقع وقال : كيف لا توجد مواضيع للكتابة ، المواضيع موجودة فى كل مكان . . . انظروا إلى هذا الحائط : ها هوذا يبدو لكم لأول وهلة أن لا شىء فيه يسترعى الاهتمام ، ولكنكم إذا أنعمتم النظر فيه رأيتم شيئاً « خاصاً به » ، لم يعثر عليه أحد بعد ! فتحدثوا عن هذا الشىء . وأؤكد لكم أنكم تضعون حينئذ قصة جيدة . . . وأضرب لكم مثلا بالقمر : لم يبق كاتب أو شاعر إلا تحدث عن القمر ، ومع ذلك بوسع المرء أن يجد فى القمر شيئاً « خاصاً به » ويكتب عنه .

والتفت الكاتب فجأة إلى النافذة المطلة على الشارع ، وكان ضياء الفجر آخذاً فى الانتشار وقال : انظروا ألا ترون قسّاً يحمل كتابه بيمينه وهو فى طريقه إلى برج الكنيسة؟ ألا تشعرون أن الموضوع الطريف يثير نفسه بنفسه؟ . . هناك شىء مفجع ؛ قس فى السواد وفجر ممتقع ! . .

كان أنطون تشيخوف يقول للكتاب الناشئين : لا يجوز للكاتب أن يجلس بين أربعة جدران ؛ وأن يستولد المواضيع من ذاته ، بل عليه أن يرى الحياة والناس ويلمسهما ، وعليه أن يستمع إلى أحاديث القوم كما هى لا كما يتخيلها ، وأن يسعى دائماً إلى الأسفار والاحتكاك بمختلف العناصر والشعوب ؛ ونصح الكاتب مرة أحدهم بقوله : سافر إلى اليابان ! ونصح غيره بقوله : سافر إلى أستراليا ! . .

وصادف الكاتب مرة صديقه تيليشوف راكباً قطار الضواحى فبادره قائلا : لا تسافر إلى مصيفك الريفى ؛ لأنك لن تجد هناك شيئاً يذكر ، سافر إلى مكان قصى : يبعد عن هذه المنطقة ألفاً أو ألفين أو ثلاثة آلاف فرسخ . . ارحل إلى آسيا : وإلى البايكال فى سيبيريا . . فالمياه هناك عذبة صافية . وإذا لم تجد متسعاً من الوقت فسافر إلى جبال الأورال حيث الطبيعة مائعة خلابة . . . أجل تخط حدود بلادك إلى أوربا حتى إذا أرعدت شعرت بأنك تقف على تربة آسيوية ! . . وبعد ذلك ارجع إلى منزلك أو إلى مصيفك وأنت تحمل الشىء الكثير من المواد والمعلومات ، بل الكثير من القصص ! . . ففى الأسفار تشاهد كيف تعيش الشعوب : وتكون مرغماً على أن تقضى الليل فى الحانات أو الأكواخ ، فتتقلب على الفراش الخشن ، والبراغيث تلسعك وتقض مضجعك . . وإذا ما أتممت ذلك كله فعد إلى واشكرنى . . ونصيحتى إليك ألا تجلس فى القطار الذى تسافر فيه إلا فى عربات الدرجة الثالثة . . امتزج بالشعب الساذج ، وإن لم تفعل ذلك فلن يبلغ مسمعيك شىء له أهميته . . فإذا أردت أن تكون كاتباً فما عليك إلا أن تبتاع تذكرة إلى منطقة نيجنى ، ومن ثم أبحر فى نهر الڤولغا ، ثم فى نهر كاما .

وعمل تيليشوف بنصيحة تشيخوف فأبحر سنة ١٨٩٤ فى نهر الكاما الممتد وراء جبال الأورال ، وتعرف هناك إلى حياة المستعمرات الروسية التى يقطنها الفلاحون الروس ، ولمس بؤسهم الذى يشبه الخرافات والأساطير ، ولما عاد إلى موسكو كان يحمل فى جعبته مجموعة رائعة من قصص سيبريا ، فتزاحمت عليها كبريات المجلات الروسية فى ذلك الحين .

ويروى لنا تيليشوف قصة طريفة من حياة الكاتب فيقول : كنت يوماً أركب القطار فى الدرجة الثالثة فاجتمعت فيه بفلاح مسافر إلى قرية لوباسنا ، مصيف تشيخوف ، وبحكم جوارى لذلك الفلاح تجاذبنا

أطراف الأحاديث ، فلما عرفت أنه من قرية لوباسنا قلت له : لى صديق فى قريتكم أعرفه . .

قال : من هو ؟ . .

قلت : الدكتور تشيخوف . . .

قال : ها . . أنطون باڤلوڤيتش ؟ . . قال ذلك مبتسما مسروراً ؛ ولكن سرعان ما تجهم وجهه وأردف قائلا : حقاً إنه لشخص غريب الأطوار ، مشوش الأفكار !

قلت : من ؟

قال : الدكتور أنطون باڤلوڤيتش . . نقلب له زوجتى العجوز وعالجها وشفاها . . ثم مرضت بدورى وعالجنى وشفانى . . ولما قدمت له أجراً رفض قبوله رفضاً باتاً . فقلت له : أى عزيزى أنطون باڤلوڤيتش كيف ترفض الأجر ؛ ومن أين ستعيش إن لم تتقاض منى ومن غيرى أجراً . . . أنت لست بالرجل الغنى ! هلا فكرت فى مستقبلك قليلا . . تصور أنك فى ساعة من ساعات القدر العاتية ستضطر إلى ترك عملك ، فما أنت فاعل ؟ أتشتغل بالتجارة وأنت تجهلها ! . . وإلى أين تذهب ويداك خاليتان من المال ؟ . . فضحك أنطون باڤلوڤيتش وقال : إذا أخرجت من عملى أتزوج من امرأة تاجرة ! . . قلت : وأية تاجرة تقبلك بعلاً لها وأنت لا مركز لك له أهميته . . . وكان جوابه أن ضحك ثانية كأن الحديث لا يعنيه ألبتة .

كان جليسى يحدثنى بذلك وهو يلوى رأسه ويتنهد ، ثم أردف قائلا : أجل ! إنه لرجل طيب أنطون باڤلوڤيتش . . غير أنه سيعانى مصاعب جة فى كبره . . إنه لا يدرك قسوة الحياة عندما تكون بلا حساب !

أما هذه الحياة التى « بلا حساب » فى حياة تشيخوف فتظهر بكل وضوح وجلاء فى الحادث التالى :

اتفق الكاتب سنة ١٨٩٧ مع الناشر الألمانى ماركس ، صاحب دار « نيڤا » للنشر ، على أن يضع تحت تصرفه كل مؤلفاته التى كتبها والتى سيكتبها فى حياته مقابل خمسة وسبعين ألف روبل ونصت الاتفاقية على أنه لا يحق للكاتب أن يسمح لأحد بنقل شىء من مؤلفاته حتى ولو كان القصد من ذلك عمل الخير . أو مساعدة أية هيئة من هيئات الإحسان ! . . .

وبعد أن وقع الطرفان هذه الاتفاقية شرعت دار النشر « نيڤا » فى طبع مؤلفات تشيخوف فى اثنى عشر مجلداً ، وعرضتها على الجمهور . فأدرت عليها بعد مرور سنة من الزمن أرباحاً طائلة عوضت عليها أضعاف ما دفعته للكاتب .

وما إن انتشر خبر هذه الاتفاقية حتى أحدث ضجة كبرى فى الأوساط الأدبية الروسية . وأسرع ماكسيم غوركى فى كتابة رسالة لأنطون تشيخوف ينصحه فيها بأن يفسخ اتفاقيته مع ماركس . وقال له فيها :

« ابعثوا بهذا اللص إلى الشيطان . . . إننى أتقدم إليكم بالنيابة عن نفسى ، وبالأصالة عن دار "المعارف" أن تفسخوا اتفاقيتكم مع ماركس ؛ أعيدوا إليه الخمسة وسبعين ألف روبل مع الفائدة ونحن نتعهد لكم أن نساعدكم فى ذلك . إننا نضع تحت تصرفكم كل ما تحتاجون إليه من مال . . . ثم خولونا حق نشر مؤلفاتكم . أى ادخلوا شريكا فى دار "المعارف" وتولوا بنفسكم نشر كتبكم . . . إننا نعدكم بتسليمكم كل الربح الذى نجنيه من نتاجكم الفكرى . وتظلون المالك الشرعى لذلك النتاج طيلة حياتكم . واتفاقكم معنا يمكنكم من طبع كميات كبيرة من كتبكم . وبيعها بأسعار زهيدة تنافس أسعار ماركس . . إن الناس اليوم يقرءونكم فى القرى ، كما يقرؤكم فقراء المدن ، وهؤلاء يتعذر عليهم

دفع روبل وخمسة وسبعين كوبيكاً ثمناً للكتاب الواحد . أى عزيزى ابعثوا بهذا الألمانى إلى الشياطين . فوالله إنه لينهبنكم بكل قحة . افسخوا اتفاقيتكم معه ، ودار "المعارف" تضمن لكم دخلا سنوياً معلوماً قدره خمسة وعشرون ألف روبل . فكروا فى ذلك ! . . »

ولما كانت البلاد الروسية تتأهب فى ذلك الحين للاحتفال بمرور خمس وعشرين سنة على حياة تشيخوف الأدبية. اجتمع فريق من الأدباء والشعراء والعلماء ، والفنانين ، واتخذوا قراراً بالاحتجاج على اتفاقية ماركس وبعثوا له بالرسالة التالية :

« فى هذه الآونة التى تستعد فيها روسيا بأسرها للاحتفال بمرور ربع قرن على حياة أنطون تشيخوف الأدبية ، تبرز أمامنا قضية خطيرة تهم المجتمع الروسى قاطبة . ومفاد هذه القضية أن هناك عدم تناسب مريع بين ما قدمه ويقدمه أنطون باڤلوڤيتش من خدمات أدبية جليلة من جهة ، وعدم ضمان حالته المادية من جهة أخرى .

عمل أنطون باڤلوڤيتش ربع قرن فى إيقاظ ضمائر الناس وإنارة أفكارهم بما قدمه لهم من تآليف نفيسة خطها بمداد قلبه المحب الحى . وله الآن ملء الحق فى أن يجنى ثمار مجهوده الفكرى وإلا فالعار العار ! . .

إن المؤلفين والكتاب فى البلاد الغربية يصيبون القدر الكبير من الثروة والاستقلال مما يقدمونه لأقوامهم من تآليف . وأما تشيخوف روسيا فهو لا تنقصه الثروة فحسب — إذ لا يعقل أن يحلم الكاتب الروسى بالإثراء — بل إنه لا يملك أيضاً القدر المتوسط من المال الذى يمكنه من الركون إلى الراحة فى كبره دون أن يفكر فى قوت غده .

أجل . هذا هو المصير الذى ينتظر رجلا تتجه إليه اليوم أنظار الروس ، وهى تشع بوميض الفرح والابتهاج لمناسبة مرور خمس وعشرين سنة على حياته الأدبية الطافحة بروائع الإنتاج ، والتى وضعته فى مصاف

الكتاب العالميين .

فمنذ أشهر فقط عمد بلد صغير مثل بولونيا إلى إظهار عواطفه الإنسانية السامية نحو شاعره القومى سينكيفتش . فأكرمه بسخاء فى يوبيله الأدبى الفضى . وأما تشيخوف روسيا العظمى فيقابله الدهر الخؤون بحرمانه أبسط حق من حقوقه المعاشية . . .

لقد اطلعنا على الاتفاقية المعقودة فيما بينكم وبين أنطون باڤلوڤيتش تشيخوف والتى يحق لكم بمقتضاها أن تضعوا يدكم على جميع مؤلفاته مقابل خمسة وسبعين ألف روبل . والتى تخولكم الحق أيضاً فى أن تدعوا ملكية كل ما ينتجه فى المستقبل مقابل أجر زهيد لا يزيد على المكآفات العادية التى يدفعها أصحاب المجلات للأدباء والكتاب . والفارق بينكم وبين تلك المجلات أن هذه تكتفى بنشر المقال مرة واحدة وأما أنتم فتنشرون تآليف تشيخوف مراراً عديدة . وإننا لعلى علم تام بأنكم قد تمكنتم ، بعد مرور سنة على عقد تلك الاتفاقية ، من تعويض ما دفعتموه لتشيخوف أربعة أضعاف ! . . .

وإذا ما أخذنا بعين الاعتبار هذه الأرباح الطائلة التى جنيتموها ، والتى ستجنونها فى المستقبل ، من بيع تآليف تشيخوف ؛ نصل حتماً إلى نتيجة محزنة أليمة لا ريب فيها ، وهى أن الكاتب الكبير لم يصب إلا جزءاً ضئيلا جداً مما يستحقه .

ولاتفاقيتكم هذه شرط سلبى آخر وهو إرغام أنطون تشيخوف على أن يقدم لكم كل تآليفه الجديدة مقابل ثمن بخس . فهذا الشرط الجائر لا بد أن يكون حملا ثقيلا على نفس الكاتب . وسيترك أثراً سيئاً فى سير إنتاجه الأدبى .

وفى الاتفاقية نص آخر يفرض على الكاتب غرامة قدرها خمسة آلاف روبل على كل ملزمة مطبوعة فى أية دار نشر غير دار "ماركس"

وهذا يعنى أيضاً حرمان الكاتب من إصدار طبعات شعبية زهيدة الثمن ، فتكون جميع الكتب الحديثة — الصادرة فى طبعات شعبية — فى متناول الجميع حاملة أسماء كل الكتاب ، غير اسم عزيز علينا ، هو اسم أنطون باڤلوڤيتش تشيخوف . . .

إنا نرجوكم فى هذا اليوبيل الفضى الأدبى المقام للكاتب الكبير أن تعدلوا ذلك الجور غير المختار الكامن فى طيات اتفاقيتكم. وإنا لنفترض بأنكم وأنطون باڤلوڤيتش لم تتمكنا فى أثناء عقد الصفقة فيما بينكم من لمس ما ستسفر عنه تلك الصفقة من نتائج ، ولذا نتوجه إلى ضميركم وعدلكم أن تفسخوا الاتفاقية . ونعتقد جازمين أن الاعتبارات الشكلية فى مثل هذه الأحوال يجب ألا تلعب دوراً هاماً على الإطلاق .

ونلفت أنظاركم إلى أن اتفاقيات مماثلة فسخت فى الماضى ، ونضرب لكم مثلا بالاتفاقية المعقودة بين إميل زولا ودار "فيسكل" للنشر ، فقد عقدت هذه الاتفاقية بين الفريقين فى وقت لم يكن فيه زولا كاتباً كبيراً ، له قرائه . . . ولما شغل زولا المكان اللائق به فى الأدب الفرنسى ، عمدت دار "فيسكل" إلى فسخ الاتفاقية وتحرير اتفاقية ثانية تضمن للكاتب الفرنسى الحرية والضمان » . .

ووقع هذه الرسالة عدد من الكتاب ، والعلماء ، والفنانين . بينهم مكسيم غوركى وليونيد أندرييف ، وفيودور شالياپين ، وإيفان بونين ، ونيقولاى تيليشوف وغيرهم .

ولما بلغ تشيخوف خبر هذه الرسالة سأل القائمين بها أن يكفوا عن جمع التواقيع ، وألا يبعثوا بها إلى « ماركس» قائلا : لقد وقعت تلك الاتفاقية مختاراً ، ولا يليق بى أن أتخلى عن الالتزامات التى قطعتها على نفسى ، فإذا رَخُصْتُ فأنا الملوم! لقد ارتكبت حماقة ، والسيد «ماركس» غير مسئول عن حماقات غيره . . فى مرة أخرى سأكون حذراً ! . . .

وفى هذه الآونة . . أى حوالى سنة ١٨٩٥ ، تعرف تشيخوف إلى إيف تولستوى ، وتطور هذا التعارف إلى صداقة ، ثم إلى حب واحترام ، فى حين أن الشخصين كانا على طرفى نقيض فى طريقتهما ، ونمط تفكيرهما ولا يتقابلان فى نقطة واحدة ؛ فالأول واقعى إلى أبعد حدود الواقعية والثانى صوفى مغال فى صوفيته . وبالرغم من ذلك كان تولستوى من جهته يجل تشيخوف أيضاً كفنان عظيم ، وإنسان سام ، وشخصية فذة ، ويغفر له عبادته للعلم والثقافة ، ويسر جداً لتآليفه ، ويعجب بها ، وهكذا توطدت عرى الصداقة بين الأرستقراطى العظيم المتحدر من أسرتى فولكونسكى وتولستوى ، والرجل الشعبى الصاعد من الفلاحين الأرقاء ! . .

قال تولستوى مرة : تشيخوف هو بوشكين روسيا فى النثر !

وقال أيضاً : تشيخوف شخص فاتن ، متواضع ، لطيف المعشر ، ويسرنى أن أتحدث عنه . . .

وكان تشيخوف يقدر تولستوى العبقرى حق قدره ، ويدرك كنه قيمته الأدبية ، ويتبين لنا ذلك من المثل التالى :

أصيب تولستوى سنة ١٩٠٠ بمرض عرّض حياته للخطر ، وكان تشيخوف طبيبه الخاص فأخذ يعالجه ويعوده يومياً ، وإذ خرج من عنده مرة قال لأصدقائه : « إننى أخشى موت تولستوى ، ففقدانه سيحدث فراغاً عظيماً فى حياتى ، لأننى أولا لا أحب أحداً أكثر منه ، وثانياً لأن وجوده فى معترك الحياة الأدبية يسهل على المرء أن يكون أديباً ، وأن يتذوق الأدب حتى ولو أنه لم يفعل ولن يفعل للأدب شيئاً ! . . فتولستوى يعمل للجميع ! . . وثالثاً لأن فى بقائه على قيد الحياة بناء قوة معنوية تكبح جماح الأذواق القبيحة ! . . ورابعاً لأن فى بقائه ما يحفظ الأحاسيس الأدبية واتجاهاتها على أن تظل فى مستوى عال معلوم » . ومن غريب تصرفات الدهر أن الشيخ تولستوى شفى من مرضه ، وبعد سنوات قلائل ،

كان فى جملة من شيع تشيخوف إلى لحده ! . .

فى سنة ١٨٩٧ اكتشف الكاتب فجأة أنه مصاب بالتدرن الرئوى ؛ فسافر إلى بيارتس فى فرنسا للاستشفاء ، ثم انتقل إلى نيس . وفى سنة ١٨٩٨ عاد إلى روسيا فباع أملاكه فى قرية ميليخوفة ، وتوجه توًّا إلى يالتا فى القرم برفقة شقيقته ماريا باڤلوڤنا ، فابتاع هناك أرضاً فى قرية آوتكه ، وشيد عليها بيتاً صغيراً حسب ذوقه . وأحاطه بحديقة غناء ، زرع فيها أشجاراً توحى له جو المناطق الروسية الشمالية التى كان يتعشقها ، ومع ذلك كان ينظر إلى القرم وكأنه منفى لا مكان للاستشفاء والتمتع بجمال المناطق الطبيعية الجنوبية ، مخالفاً فى ذوقه هذا معظم شعراء الروس وكتابهم ، الذين كانوا يتمنون العيش عند سواحل القرم أو على جبال القوقاس.

ونرى الكاتب فى القرم كما عهدناه فى قرية ميليخوفة ، منشئاً ، اجتماعيًّا ، يعنى بمعالجة المرضى والضعفاء ، كما أن مرضه لم يفقده حبه للنكتة ، وخفة الروح ، والتحدث عن صغائر الأمور ، والمداعبات المستحبة.

وحدث فى خريف سنة ١٩٠٢ أن زاره فى بيته * فى القرم جماعة من الأدباء والكتاب بينهم غوركى ، وبونين ، وبعد أن تناولوا العشاء تطوع بونين بأن يقرأ على الحضور قصة مرحة لتشيخوف ، وكان المؤلف قد نسيها لقدمها . . فأنصت الجميع لبونين ، وقد سحرهم بحسن إلقائه ، وإحكام لفظه ، أما تشيخوف فقد عبس فى أول الأمر ، ثم ابتسم ثم أخذه الضحك . ولما انتهى بونين من القراءة علق الكاتب المريض بقوله :

---

* فيلا تشيخوف هذه لا تزال قائمة بالقرب من يالتا فى القرم ، وهى اليوم متحف لآثار الكاتب الكبير ، وكل شىء فى هذه الفيلا باق مكانه كما تركه ، فهناك غرفة نوم ، ومكتبته ، وملابسه ، ومجموعة آخر رسائله . . فيخيل للزائر أن صاحبها آت بعد لحظات ! . .

أنتم محظوظون يا كتاب اليوم ، فالناس يخلعون عليكم آيات الثناء على ماتقدمونه لهم من قصص قصيرة . . أما أنا فقد مر بى زمن كان الناس فيه يتهالون على بالشتائم لأننى أكتب القصة ! . . لأنهم كانوا يعتقدون أن الكاتب لا يكون موضع الاحترام والاعتراف بالجميل إلا إذا وضع رواية كبيرة ! . . غير أننى بينت عقم هذه الفكرة ، وخرقت الحائط بجبينى من أجل القصص القصيرة .

وفى ٢٥ مارس سنة ١٩٠٢ تزوج الكاتب من إحدى ممثلات مسرح موسكو الفنى ، وهى أولغا ليونارود وفنه كنيپر ، وكان زواجاً دام سنتين فقط .

وفى سنة ١٩٠٢ أيضاً انتخب تشيخوف ، وغوركى ، وكورولينكو * أعضاء فى الأكاديمية الروسية ، لكن القيصر نيقولا الثانى أبى على غوركى عضوية الأكاديمية وحرمه منها قائلا : « إننى جد متألم من انتخاب غوركى » ، فما كان من تشيخوف إلا أن رفض عضوية الأكاديمية احتجاجاً على تصرف القيصر المشين ، ومناصرة لزميله الكاتب الشعبى الكبير .

وفى سنة ١٩٠٣ وضع الكاتب تمثيلية « حديقة الكرز » فقرر مسرح موسكو الفنى أن يمثلها فى ١٧ يناير سنة ١٩٠٤ ، أى فى ذكرى ميلاد تشيخوف ، وفعلا مثلت فى حضوره ، وبعد الانتهاء من التمثيل وقف صاحب التمثيلية على المسرح والجمهور الغفير يقدم له الزهور ، والهدايا ، والبطاقات ؛ وكان الكاتب — وقد اشتد عليه المرض — يبدو شاحباً هزيلا ، متصوراً أن الجمهور يجرى تجربة كبرى لتشييع جثمانه ! . .

وفى شهر يونيو سنة ١٩٠٤ ألح الأطباء على تشيخوف بأن يسافر

---

* دلاديمير غالاكتينوفتش كورولينكو (١٨٥٣ - ١٩٢١) كاتب روسى كبير ، ومن مؤلفاته البارزة « الموسيقار الضرير » .

إلى بادن فيلير فى ألمانيا للاستشفاء ، وقبيل مغادرته القرم زاره أصدقاؤه فرأوه هيكلا ضئيلا : شمعى اللون ، وعيناه « لا تبتسمان » كما كانتا فى السابق . . فقال لهم : الوداع إننى ذاهب لأموت . . تحياتى إلى جميع الأصدقاء والمعارف ، وقولوا لبونين أن يواظب على الكتابة ، لأنه سيصبح كاتباً له شأنه .

وانتقل الكاتب إلى بادن ليقضى آخر أيامه فيها ، وفى ١٥ يوليو سنة ١٩٠٤ ، وبعد أن استنفدت جميع وسائل الطب ، أشار الطبيب بتقديم كأس من الشمبانيا ، ولما كان تشيخوف طبيباً لم يفته المعنى من تقديم الكأس المذكورة ، فنهض فى فراشه وقال للطبيب بالألمانية : إننى أموت ! . . ثم رفع الكأس بيده وقال لزوجته مبتسما : لقد مضى على زمن طويل لم أذق خلاله طعم الشمبانيا : وأفرغ الكأس فى جوفه حتى الثمالة ؛ واضطجع بهدوء على جنبه الأيسر ، وسكت سكتته الأبدية .

وعند مطلع فجر اليوم التالى نقل جثمان الكاتب إلى الحدود الروسية فتلقاه أناس من الموظفين لم يسمعوا باسمه قط ! . . فوضعوا نعشه فى عربة كتب عليها « عربة الأسماك والمحارات » ثم وصل الجثمان إلى بطرسبورغ ولم يدر به أحد بسبب سوء تفاهم وقع فى إرسال برقية النعى . وفى السابع عشر من يوليو سنة ١٩٠٤ نقل الجثمان إلى موسكو ، وكان فى استقباله جمهور غفير من النواب ورجالات الفن والأدب والعلم يحملون مئات الأكاليل وباقات الزهور ، وكان ذلك الاستقبال بمثابة كلمة شعبية كبرى فى تقدير فداحة الخسارة .

ومن ثم شيع أنطون باڤلوڤيتش تشيخوف إلى « دير العذارى » المعروف بدير نوفوديفيتشى بالقرب من موسكو ودفن فيه .

وفى ١٦ يناير سنة ١٩٣٣ أى بعد تسع وعشرين سنة على وفاة الكاتب الروسى العظيم ، نبش القبر بحضور رهط من الناس يمثلون مسرح موسكو

الفنى و « الجمعية التشيخوفية » . وذوى الكتب وأخرجوا النعش المطوق بالزنك ، ونقلوه إلى مقبرة جديدة فى موسكو أعدتها الحكومة السوفياتية لتوابغ الكتاب والفنانين الروس ، ودفن فى ضريح فخم يليق بمقامه الأدبى ، وكان موقع الضريح فى « حديقة الكرز » تذكاراً لآخر تمثيلية وضعها الكاتب فى أواخر أيامه .

* * *

كلمات مأثورة لتشيخوف :

« آن الأوان ! إن أحداثاً هائلة تقترب منا ، إن عاصفة قوية عنيفة تسير نحونا قدماً ، إنها تقترب شيئاً فشيئاً ، وستنسف من مجتمعنا السآمة والكسل وعدم المبالاة والنفور من العمل » .

من مسرحية « الأخوات الثلاث »

« من الأقوال الدارجة أن الإنسان بحاجة إلى ثلاث أذرع من الأرض ، والواقع أن هذه الأذرع الثلاث تلزم لجثة الإنسان فقط ، وأما الإنسان الحى ، فلا تسعه ثلاث أذرع من الأرض ، ولا بيت كامل ؛ وإنما الطبيعة قاطبة ، بل الكرة الأرضية بأسرها ، ليتمكن فى فسحتها من إظهار جواهر روحه وخصائصها » .

من قصة « عنب الثعلب »

« مهمة الإنسان إما فى لا شىء ، وإما فى شىء واحد : الحب المتناهى للقريب » .

و « هناك طراز من الناس يتعمدون الحزء بغيرهم فى كل مظهر من مظاهر الحياة ، وهم لا يستطيعون العبور بجائع أو منتحر دون أن يقولوا له قولا لئيما » .

من قصة « الرجل المجهول »

« يقولون إن الفلاسفة والحكماء "لامبالون" ، وهذا قول غير حقيق فاللامبالاة هى شلل النفس ؛ هى الموت قبل الأوان » .

من قصة « السيرة المملة »

« الزواج بلا حب كالعبادة بلا إيمان ، وهذا ضرب من النذالة لا يليق بكرامة الإنسان » .

من قصة « المبارزة »

« حياة البطالة والفراغ مشوبة بالقذارة » .

من مسرحية « العم فانيا »

— « ماذا تكون حالنا لو أن الحياة الإنسانية كانت مبنية على عدم مقاومة الشرور ؟ !

— لا شيء بتاتاً . . فعدم مقاومة الشرور يفسح المجال لعبث الإرادة الآثمة ، وهذه — والمدنية معها — لا تبقيان على الأرض حجراً على حجر !

— ومن يتبقى على الأرض إذن ! . .

— جماعات من الأشقياء ! . .

من قصة « أناس طيبون »